طروحات مستكتبة، ندوة عمارة المساجد، م ١٠ أ، ص ص ١٩-٢٦، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

جدلية العلاقة بين الجامع وهوية المدينة الإسلامية

محمد مكية

مكية المعمارية

لندن، المملكة المتحدة

ملخص البحث: المسجد، وما يشكله من حجر الزاوية في حياة و فكر المسلمين، كان ولايزال محط اهتمام الباحثين والمؤرخين. فبالإضافة إلى كونه مكاناً للعبادة، هو الملاذ لاجتماع الناس ولاستراحة الروح والجسد من تعب المعاش اليومي. اختلفت مادة البناء والكساء للمسجد، واختلفت المآذن والقباب والمنابر وتميزت بطابعها المحلي حسب اختلاف جغرافية المكان وما أنتج ذلك من خصوصيات في الهوية، و لم تختلف الثوابت. فالمسجد بتوجيهه أفقياً نحو القبلة ورأسياً تكون فيه المئذنة منارا يهتدي إليه المار. المشاريع التي قام بتصميمها الباحث في أنحاء مختلفة من بلاد المسلمين تميزت بالحفاظ على هوية المدينة الإسلامية في تلك البلدان وإبراز جماليات المكان. وقد تم التعامل السليم مع التكنولوجيا الحديثة و ذلك بتوافق وانسجام مع البيئة المحلية والتراث الفني الإسلامي.

المقدمة

لندوة "عمارة المساجد"، أكثر من مدلول، فإضافة إلى دلالتها الفكرية في مهام التوحيد، تعبر عن مهام التعرف، كمهام روحيه واجتماعية، ومهام عمرانية. ورد في الآية الكريمة ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الأخر﴾. [سورة التوبة : آية ١٨] كانت، هذه الآية، بمثابة وصية إلهية للإنسان في تولي العمران المحفوف بالإيمان الروحي، والذي يأخذ اجتهاد الإنسان بنظر الاعتبار، وفق ما يناسبه ويناسب بيئته الجغرافية. ومثلما تنوعت البيئة الجغرافية كذلك تنوع عمران الإنسان من بيئة إلى أخرى.

وأهمية ومكان المسجد الجامع في الفكر الإسلامي، وما يشكله من حجر الزاوية في يوميات المسلمين كان محط اهتمام الباحثين والمؤرخين، وقد أبرز هؤلاء مهام تلك المؤسسة كدار للعبادة فقط، يفتح مع رفع الآذان ويغلق بعد انتهاء الخطبة، والاستشارة الفقهية. وما جاء في دائرة المعارف الإسلامية من بحث واسع في مهام المسجد وتاريخه، والذي قام به مختصون في العمارة والفن الإسلاميين، يسد الحاجة، ولعلَّ أي بحث آخر في هذا الخصوص سيكرر نفسه، لهذا توخيتُ تجنب التكرار، ونظرتُ إلى ما هو محتمل، على ضوء خلفية الواقع، وأن الهام بالنسبة للممارسة العملية ما هو الأفضل، ولعلَّ ذلك جزء من الحلم فيما عُرف بالمدينة الفاضلة، وموقع المسجد فيها. وسنحاول في هذه المقالة التصدي لهذه المسالة و سنستعرض بعض المشاريع حيث طبقت بعض من افكارنا المتعلقة بهذه الجوانب.

مكانة المسجد في المجتمعات الاسلامية

إن مدلول الإسلام كدين ونمط حياة يُشير إلى مكانة الجامع في المجتمع المدني والعمران الاجتماعي، والذي يفترض فيه تحقيق مجال ممارسة التأمل والراحة. فالمسجد إضافة إلى كونه مكاناً للعبادة، فهو المكان المناسب أيضاً لاجتماع الناس، واستراحة الروح والجسد من تعب المعاش اليومي، وما توجبه لحظات أداء الفرائض من راحة نفسية، وإستقرار الذات في تأملها لمعنوية الوجود في هذا المكان المناسب لذلك الأداء.

إن مكانة الجامع في التوحيد، بين سكان المعمورة، تتجلى في وحدة الفرائض واتجاه القبلة، وما يُشير من اختلاف في مهام تلك المؤسسة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وتعبر تلك العلاقة، بين الأزمنة الثلاث، عن الواقع والمحتمل. وفي مجال مهام الجامع الاجتماعية، إضافة إلى مهامه في العبادة، أقتبس من جريدة الحياة النص التراثي الآتي، الذي جاء تحت عنوان "الإسلام والمساجد": "يحكي العبدري، وكان شيخاً شديد الحياء مرهف الحس، إنه ما نزل بلداً إلا قصد إلى الجامع، وهناك يتعرف على الشيوخ وطلبة العلم، فيجد فيهم الصاحب والأهل، وكان إكرام الناس له يصل إلى حد أن بعضهم كان يترك عمله ومصالحه ليُعِين هذا العالِم الغريب، ويرافقه طيلة إقامته في البلد. ويحكي أبو بكر بن العربي (٤٦٨ - ٥٤٢) في رحلته، أن المركب الذي كان ينقله مع أبيه من الأندلس إلى الإسكندرية عصفت به الريح، وغرق قرب شاطئ طرابلس، ولكن الله يسر لهم النجاة إلى الشاطئ، وهما في أسوأ حال، فأخذهما الناس إلى الجامع، وكان الموضع مترلا لبعض بطون قبيلة كعب بن سليم، وفي الجامع أتى إليهما بشيء من الكسوة، ثم اتجهوا بهما إلى شيخ القبيلة، فلقيا من إكرامه شيئاً كثيراً. ويقول محي الدين بن عربي أنه ما كان يقصد في أي بلد إلا إلى الجامع ليلقى أمثاله ويأتنس بهم، ويقول: إنهم كانوا إذا خرجوا من صلاة العشاء وجدوا رجالاً كثيرين يحملون قصاعاً من الطعام يرسلها أهل الخير للغرباء. وكنتُ إذا حجم الليل وأنا خالي الوفاض أُصيب من تلك القصاع ما يعينني على قيام الليل والأعمال بالنيات. وما نزلتُ بلداً إلا وجدتُ فيه هذه الخصلة اللطيفة من خصال أهل القبلة، وما وجدتها عند غيرهم، وهذا من فضل الله عليهم، وما كرهتُ فيها إلا بعض الأرذال جعلوا دأبهم الاعتماد عليها في عيشهم كله. ويحكي أحمد بابا التمبكي أن بلاد المسلمين التي مرب بها في أقاليم السودان تميزت بوفر طعام أهلها، فلا تجد فيها جوعاً ولا مسبغة، لأن الناس يعمدون إلى ما بقي من طعامهم فيجعلونه على حصر نظيفة عند الجامع فيصيب منها الجائع والمحتاج حاجته. وفي سيرة أحمد بن إبراهيم الجزار - وهو من أعاظم أطباء المسلمين وكان قيروانياً - أنه كان يخرج بعد صلاة العشاء ويقف على باب الجامع ليداوي المرضى من الفقراء، وكان يصطحب عاملاً له يحمل أصناف الأدوية فيعطيهم منها ما يرى، وكان يعمل ذلك حباً في الله وبراً بأمة محمد ﷺ. وعندما رحل ابن فاطمة الرحالة إلى آخر بلد غانة نظر إلى ما وراءها وسأل عنها فقالوا له: هذه بلد الكفر، فقال لمن معه: هلّلا بنينا مسجداً في هذا الموضع؟ فقالوا يحرقه الكفار، فقال: لا والله ما يحرق المساجد إلا الجبار العنيد، وهؤلاء قوم على الفطرة لا يعرفون الشر، فما انتهى اليوم حتى كنا أقمنا مسجداً صغيراً من طين وسقفناه بالسعف، واختار شيخ كبير مِنَّا ليُقيم عند المسجد فيخدمه، وتركناه ومضينا، وعندما عدتُ بعد شهور قليلة وجدنا الموضع قد صار بلد إسلام، وامتدت المساجد بعد ذلك فما قالوا انه بلد كفر أميالاً كثيرة، واصبح الشيخ إماما في نعمة كبيرة ببركة هذا المسجد المحروس". وقصص مثل هذه

كثيرة تدل أن الجامع كان مقصد الغرباء، ومكاناً للتعرف والتعارف بين الغرباء. وكان للجامع دور في رحلات الرحالة المعروفين من ابن بطوطة وابن جبير، وما دلالة ذلك في إتمام الوحدة الإسلامية عبر التجوال، فما زال هناك مأوى للغرباء أو الزوار كان هناك ارتياد وتبادل معرفة. كذلك كان للجامع دوراً كبيراً في ظهور النظريات والتشريعات العلمية والفقهية. وما أتذكره في الطفولة أن جوامع المحلات البغدادية كانت مقراً للتعليم. يأتي إليها المتعلمون لغرض تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، والاجتماع بأصحابهم.

معان و ثوابت في عمارة المساجد

إن المجتمع الإسلامي في مختلف بقاع الأرض، واختلاف المكان والزمان، وما أنتج ذلك من خصوصيات في الهوية المحلية، بالقرية أو المدينة يتوجه بأفقية نحو القبلة. وكل ما هو مطلوب في تصميم بيوت الله هو الاتجاه نحو مكان القبلة، أي تحديد مكان المحراب بدقة، ومظلة الصلاة، حيث تتولى الحيطان مكانتها في الفضاء الداخلي، ليتحقق الوسط أو ما يعرف بالصحن. وأن يتحقق ذلك عبر أفقية أرضية، وفي اتجاه أفقي، تحل فيها العمودية بتعامد، ممثلة بالمئذنة كمنار. وباختلاف البيئة الجغرافية، من بقعة إسلامية إلى أخرى، اختلفت أشكال المنائر وتميزت بطابعها المحلي، مع الحفاظ على دوليتها في المهام التي تؤديها في المكان. وبقدر ما اختلفت مادة البناء والكساء من الطين والطابوق الآجر، إلى القصب والخشب، إلى الحجر فإن الجامع تولى جمع الشمل عبر المهام التي يؤديها. إن الجامع، كما أسلفنا، ليس محلاً للعبادة فقط، وإنما هو الوسط الذي تجتمع حوله أوصال المدينة أو القرية أو المحلة، يُعبر هذا الاجتماع عن مهام التوحيد، التي عبر فيها الإسلام دينياً ودنيوياً. إن ما يوجبه التوجه في أوقات الصلوات الخمس من دلالة الوحدة الإسلامية، والأمة الواحدة، وما تميز فيه الإسلام عن الأديان الأخرى بروحانية مكانة المسجد الذي يمثل النواة المركزية في المدن والمستوطنات من قرى وأرياف.

ترتبط الأرض، عن طريق الجامع، بالسماء عبر القبة والمنارة وصوت المؤذن، منادياً إلى الشخوص نحو السماء، لا تخلو من هذا المشهد مدينة من المدن الإسلامية. إن هذا الارتباط أو اللقاء يمنح تلك المدن طابعها الخاص، ويدل على هويتها المعنوية ومكانتها التاريخية، يتم ذلك بارتفاع المنارة في سمائها، ومن الوسط الذي حققه لها الجامع، فهو عبارة عن نواة مركزية تنمو المدينة حولها في كل الاتجاهات، وما يؤدي ذلك الوسط من تحديد اتجاه المدينة نحو القبلة، انطلاقاً من زاوية المحراب واتجاه مظلة الصلاة، كذلك ما يحققه لها من مهام التعامل الروحي والاجتماعي.

لقد سهل تخطيط المدينة أو القرية الإسلامية من تمكن الأفق السماوي في التعامل مع الأرض، ففي التعامل العمودي يحقق الجامع بعد المدينة الصوتي وصداها بالأفق، في خمسة أوقات على التتالي، أو ثلاث في بلدان أخرى، فلعلّ ذلك يتغير بتغير الرؤيا المذهبية، ويتم مع تغير موقع الأرض إزاء الشمس من مرحلة إلى أخرى، فقبل أن تكون مكبرات الصوت، كانت المنائر تقوم في مهمة نشر الصوت عبر أوصال القرية، أو المدينة، لكن ظهور تلك الآلة لم يُلغ مهام المنارة كوسيلة اتصال شاخصة بين الأفقية والعمودية، وما تبرزه من مهام جمالية في المكان.

هناك ما يدعو إلى فهم الجامع كعمارة ومهام، وما هي الثوابت التي يحققها في هوية المدينة الإسلامية، وما هو المحتمل بالنسبة للواقع المعاش. لقد أجبت على هذه الأسئلة في مناسبات عديدة، كان ذلك، من غير المشاركة في المؤتمرات والندوات، في مجالس الحوار حول المشاريع التي قمت بتصميمها من المساجد الجوامع، وأغلبها كان من نمط الجامع المركزي كجامع الدولة الكبير بالكويت، وجامع الدولة بمسقط، وجامع الدولة بمدينة إسلام أباد وغيرها.

تطبيقات مختلفة

ما أراه في هذا المجال ومن باب تجنب التكرار، أن ما أكدته وحرصت على التوسع فيه هو مفهوم العودة للتراث في عمارة الجوامع، برأيي أن هذه العودة لا تعني، بمكان، الاستدارة نحو الماضي كليا، بل المحافظة قدر الإمكان على رمزية الجامع التي عبرت عنها نماذج الجامع التراثية أسمى تعبير، كذلك الحرص على مركزية الجامع في المدينة، حتى يكون الجامع الملتقى لكل تفاصيل المدينة. ما أود قوله في العلاقة بين التراث والمعاصرة، فيما يخص العمارة، أن التراث ليس هو الشكل فقط، بقدر حضوره بعناصر حية، أما العنصر الذي لا يجد له مكانا بين مفردات الحاضر فلا حاجة إلى بث الروح فيه بعملية قيصرية.

في مشروع مجمع المحاكم بالرياض،ميدان العدل، طلب ضرورة وجود جامع صغير، يتناسب مع حجم الميدان وسكانه، فكانت محاولتي أن أعطي الجامع المذكور مكانة هامة في ذلك المجمع، مع أن يكون جزءا من أجزاء المشروع، يكمل وحدته، ومعبرا في نفس الوقت عن العلاقة بين العدل والعبادة، وربما قصدت فيه أن يكون الجامع رقيبا في ذلك الميدان، ومكانا للمراجعة الروحية، حيث يستريح فيه القاضي والمحامي والشاهد والمذنب، فالكل في وقت العبادة، والتأمل، أمام القضاء الأعلى، حيث تتجه العيون والأيادي نحو السماء. يتحقق في ذلك حضور اجتماعي يتعدى إلى استيعاب العباد من سكان المحلات المجاورة، وأن يكون الميدان وجامعه متصلا في المهام الاجتماعية أيضا.

إن مفهوم التوحيد في الأبعاد الإنسانية والروحانية هو ركن أساسي من أركان الإسلام. فالإسلام في تجلياته الدينية والدنيوية يعبر عن نفسه في الحياة اليومية، عبر التصرف الاجتماعي، والعلاقات الإنسانية المستندة إلى القرآن الكريم، والتي هيأت قيم اجتماعية أستند عليها مخططو المدن الإسلامية، وما لعلاقة ذلك بالبيئة الجغرافية، بعبارة أخرى أن تخطيط المدينة الإسلامية ومركزها الجامع هو فكرة مشتقة من التوحيد الإسلامي ببعديه الروحي والاجتماعي.

كان المطلوب في تصميم مسجد الدولة بالعاصمة الباكستانية (إسلام أباد) أن يتسع لثلاثين ألف مصلي، وفي محاولة أن يكون تصميما متميزا، يقوم بخصائص الهضبة التي يحل عليها، وان يتسع لمثل هذا العدد الكبير. ما حصل أنه حقق نواة مركزية في المدينة، كذلك أخذ صحنه حقوقه من المساحة، مع التعبير عن الأفقية الملازمة للمصلى. وفي تصميم المصلى أخذ بنظر الاعتبار الوحدات الحجمية، مع تأكيد أفقيتها الأرضية، ومكانة القبة الرئيسية التي تجاور المحراب. من كل ذلك عبر التصميم عن أفقية متميزة في المصلى، إضافة إلى أن الصحن تولى أفق السقوف والقبة الرئيسية المضلعة، وعلاقتها بالفضاء السمائي، بينما تولت المئذنة منارا مثل برج شاخص، يتعامل مع الأفقية

ليجمع شملها. وبالنسبة لمثل هذا الحجم، كان التعامل السليم مع التكنولوجيا الحديثة، واستعمال الخرسانة المسلحة في أن لا تبدو مهيمنة في المكان، وللتخفيف من ذلك تولت القبة، من الداخل، مكانة جديدة بين القباب الإسلامية، التي كانت تنتقل من المربع إلى الدائرة، ومن هيكل القبة أُخرج وضع جديد تعامل مع مادة البناء ومعطياتها، بتوافق وانسجام ملحوظين، تحقق ذلك بعيداً عن التقليد النصي لنماذج القبب السابقة. وفي مهام التكسية الداخلية، تولى الفن التشكيلي في مفرداته القوام الأساسي، من نقش وخط وغيرها من المفردات الإسلامية الفنية، وما ينسجم منها مع البيئة المحلية.

أخذت أهمية التفاصيل في عمارة المساجد مكانة في التراث الفني الإسلامي، وترابطه مع الفنون الحرفية، فأنتج العديد من المعالم الشاخصة، ومن الفنون الدولية في عالم العمارة. ودلالة ذلك أن مفردات بقايا تلك التكسية، من العهود الإسلامية الماضية، ما زال يُباع في المتاحف وأسواق الآثار، فلعلَّ ألواح القيشاني التركي، أو قطعة من النقش الفارسي، من العهد الصفوي بيعت بمبالغ كبيرة، وهناك ما وصلت قيمته أرقاماً خيالية، قياساً بحجمه. وإن دل ذلك على شيء، فإنه يدل على تعامل تلك التفاصيل مع مفردات العمارة، وحاجة العمارة الحديثة لها. فلا بد إذن، أن تتصف عمارة الجامع بمزايا ومعنويات الفن الإسلامي، وأن يتحقق ذلك بمعنوية تلك المفردات، ودلالتها الفريدة، وما تعكسه، تلك المفردات، من المعنويات الروحية الكامنة في فن النقش الإسلامي والحروف العربية.

في مثال آخر، يرمي إلى التعامل مع أثر قديم من الآثار العباسية، مطلوب إعادة الحياة إليه، وتأهيله إلى مهام الجامع الدينية والاجتماعية، كان ذلك جامع الخلفاء ومنارته المعروفة بمنارة سوق الغزل، وسط بغداد، حيث دار الخلافة العباسية، التي كانت تتولى مهامها محلتي البغدادية محلة صبابيغ الآل. وبمرور الزمن سيطر السوق على المكان ولم يبقى من الجامع ومنارته غير ١٦٠٠متراً مربعاً تقريباً، وفي مثل هذه المساحة الصغيرة، قياساً بمكانة الجامع المذكور ومنارته، كان التعامل صعباً جداً. رغم ضيق المساحة الممنوحة للمشروع، سعيت قدر الإمكان إلى الاستفادة من كل شبر منها، لذلك كان الهم الأول محاولة الحفاظ على البرج الشاخص من المنارة، وحماية قوامه في الفضاء من الأبنية المحيطة، ذات الارتفاع، وان تحاط المنارة والجامع بفراغ واقي من البناء، والعبث المحيط بهما. ظلت أغلب المطالعات في هذا المجال حبراً على ورق، فقد اقترحتُ إغلاق الشارع المعروف بشارع الجمهورية، وتحقيق ميدان مناسب يليق بمكانة الجامعة التاريخية، وأن يتحقق ممر للسيارات من تحت ذلك الميدان. لكن الحاصل، والذي هو واقع حال، أن ذلك الشارع الرئيسي، والشوارع المتفرعة منه قتلت نسيج بغداد الطبيعي والتاريخي، والذي يُعد مكان الجامع ومنارته مركزاً له في الأيام الخوالي، كما أسلفنا.

كانت المواد المستعملة في الحيطان المحيطة بالمئذنة، والتكسية تنتمي إلى مفردات البناء الموجودة أساساً في البناء، كانت تلك الحيطان عبارة عن حماية لمرحلة معينة، لعله المطالعات التي أشرت إليها تحقق، لاحقاً، في المستقبل المنظور أو البعيد. وما يتعلق في الاهتمام بالجدران ومكانتها الجديدة فقد استعملتها كحجوم هيكلية، وهي من مفردات العمارة الحديثة، مع الحفاظ على استقلالية الهيكل الإنشائي عنها. وهذه من أهم ما توصلتُ إليه اعتقاداً بأهمية الجدار في العمارة الإسلامية، في أن يكون الحائط حجماً لا خطاً مستقيماً، يعبر عن سور لا معنى له، ومثل

تلك الحجوم الجدارية تحقق في تصاميم الجوامع الأخرى التي اشتركتُ في تصميمها، مثل الجامع المفتوح بالأندلس وجامع روما.

كان اختيار موقع الجامع، في أي بلد، له أهمية كبرى، وفي أغلب أعمال التصميم لا أوافق على مشروع إلا بعد مطالعة موقعه ودراسته دراسة كافية، وفي هذا الأمر أذكر نموذج من المشاريع التي قمت بتصميمها بعدما وضعتُ احتمالات المكان التي تقوم عليه، ويصلح لمكانة بيت من بيوت الله. بدعوة للمشاركة في مسابقة دولية لتصميم جامع الدولة ببغداد، كان ذلك في عام ١٩٨٢م، وبعد طلب تحديد موقع المشروع أعطيت عدة احتمالات، أحدها أن يكون في محور شارع الجسر المعلق الذي يربط بين ضفتي دجلة، قرب موضع ساحة كبيرة، تلتقي فيها الطرق الرئيسية، على أن تكون واجهة الجامع واجهة نهرية، وأن تكون منارته معلم من معالم دجلة، بحيث تصبح الأفقية لجسر المعلق، والعمودية للمنارة، اقترحتُ ذلك بعد دراسات موثقة في عدة تقارير. الموقع الثاني المحتمل لموقع المشروع أن يكون عند محور جسر الجمهورية وميدان التحرير في الجانب الشرقي من بغداد، وأن يكون امتداده عند ساحة الطيران، مطلاً على الكنيسة الأرمينية، وأن يحيا ذلك المكان بميدان، ليكون مركزاً من مراكز بغداد الكبيرة جنوباً، ففيه تلتقي الطرق من عدة اتجاهات. أما الموقع الثالث فحددته بضفة الكرخ، مكان المطار المدني، الذي أزيل وقتذاك، ويمتد حتى ساحة المنصور، فيكون تنظيم جديد لمركز الكرخ، حتى يحدث نوع من التوازن مع الرصافة، التي تكثر فيها المساجد العامرة، وليس في الكرخ من مساجد مميزة غير مسجد صلاح الدين، الذي شُيد أيام عبد السلام عارف، وكان غريباً على بيئة بغداد العمرانية، وتراثها العباسي، وخلفيتها الحضارية. طُلب مني تحديد حجم الجامع، وقد اقترحت أن يكون نفس سعة جامع إسلام أباد، الذي اشتركتُ في مسابقته بباكستان، ومع إتمام التصميم وإعداد ما يتعلق به من دراسات إلا أنه لم يُنفذ لأسباب غير مخفية.

ومن المشاريع التي نفذ فيها تصميمي، بعد فوزه بالجائزة الأولى، عبر مسابقة دولية أيضاً، كان مسجد الدولة الكبير بالكويت، ومن بين المشاركين مكاتب معمارية بريطانية، ساهم فيها مصمم جامع ريجنت بارك، وكاتدرائية ليفر بول. كان هذا المشروع في موقع مجاور لقصر السيف، القصر الأميري، والساحل البحري، بهذا كان له أن يحقق مركزاً ملائماً للمدينة، وقد تولت الطوابق السفلية مهام إيواء السيارات، وعزلها كلياً عن أجواء الجامع والمركز الحكومي والمدني. حقق التصميم الذي قدمته، وفاز في الجائزة الأولى، العلو المناسب للميدان الأرضي، وتناسب القبة والمنارة مع القصر الأميري، وأن يكمل أحدهما الآخر، دون أن يفقد كل منهما خصوصيته.

في هذا المشروع وغيره حاولت أن تتحقق الخصوصية المحلية في الخليج والكويت، فلم استعمل الخزف القادم من بيئة أخرى. بعد حوار مع الجهات المعنية ومنها دائرة المباني بالكويت، كان المطلوب بعض التعديلات في المشروع منها: تشييد مصلى كبير، يتسع لخمسة آلاف من المصلين، وأن يكون بدون أعمدة، وقد حاولت جهدي أن ابرر وجود الأعمدة، لأنها تضفي على المكان الهيبة والجمالية، وأن سعة المكان، دون أعمدة، يحرم المصلي من الانزواء، والانفراد عند التوجه إلى القبلة. فالغرض من وجود الأعمدة لا يعني غرضاً إنشائياً فحسب، بل يعني الحفاظ على التقليد التاريخي، الذي شيدت فيه المساجد العالمية، كمسجد الرسول ﷺ بالمدينة، والمسجد الأموي بدمشق،

ومسجد قرطبة وغيرها، لكن المعالجة المقترحة من قبلهم تعني تحويل المكان إلى ساحة خطابة، أو قاعة كبرى متجهة صوب المحراب عند الصلاة، أو نحو المنبر عند إلقاء الخطبة. لم يقنع المستشار المسؤول بالآراء التي طرحت عليه ولكن من حسن الحظ أن معماريين شباب، تفهموا وجهة النظر وأعطوني الفرصة أن أوضح مهام المشروع. وخلاف ذلك كان المهندس المدني ورئيس المشاريع الكبرى بالكويت يذكر بالتكنولوجيا، وكأنني جاهل بها! ولم أخذها بعين الاعتبار عند التصميم. بعد إلحاح من قبلهم ألغيت فكرة الأعمدة الداخلية، لكنني حاولت أن أعوض بعض الشيء عن طريق الجدران المحيطة بقاعة الصلاة، في أن أعطي لها عمقا ومزايا تضفي الهيبة على المكان، بعد أن حرم من الأعمدة. فالجدران عبارة عن حجوم تتناسب لمنح السقف الداخلي المقياس المناسب لمكانة الجامع، كمكان للعبادة. التزمت بتلك المهام في مشاريعي كافة، بما يتعلق بمفهوم المقياس العمراني، والاستقلال عن القوام الإنشائي الهيكلي. إن الوحدة الجدارية ليست مجرد حوائط، بل هي أيضا وحدات معمارية يمكن أن تحقق ما تحققه الأعمدة من جمالية، وهيبة في المكان.

إن الجامع، كما أسلفت، ليس محلا للعبادة فقط، فهو أيضا المكان الذي يأوي له الإنسان في وقت ضيقه، باحثا عن الراحة والأمان، مثلما هي الجوامع باستنبول، أو المعابد السومرية والبابلية. بعد الاضطرار إلى إلغاء الأعمدة الداخلية أبقيت على الأعمدة الخرسانية في رواق المدخل، وهي ثلاثة صفوف تعلو، وتعطي التحول صوب الفضاء الخارجي والداخلي، ومع ذلك، فهناك من استغرب تحقيق فكرة الأعمدة خارج القاعة، معتبرا ذلك تحايلا.

أما عن كيفية وصول الأمير إلى المصلى، دون شق صفوف المصلين، حل الأمر بإيجاد مدخل خاص، وقد حاولت أن يكون ذلك المدخل الأميري مواجها قصر الإمارة، وأن يتحقق بمرتفعات منبسطة، ومنخفضة لكي يجذب إلى الانتقال من الحيز الفضائي الصغير إلى الحيز الكبير، وما يرافق ذلك من الشعور بالهيبة والرهبة. كذلك حاولت قدر الإمكان أن يكون المسجد كويتيا، وأن ينشأ بالآجر الذي هو من مفردات حضارة الوادي النهري. تحقق ذلك باستعمال المرمر كإطارات، وأن تكون التكسية الجدراية من الحجر الطبيعي، وفي سبيل تخفيف الكلفة المالية اضطررت إلى استعمال البلاط الخرساني الجاهز، وهذه المادة مناسبة للتكسية قبل ظهور الإسمنت الأبيض، وقد أطلقت عليه اسم الحجر الخرساني. أعترض المقاول على استخدام الحجر الخرساني، على أساس أن ذلك يحمل المشروع كلفة إضافية.

المعروف عن المقاولين أن ما يهمهم هو الربح الكبير، حتى أنهم يستعينون بمن يؤيدهم من جهاز الإشراف. وبسبب ذلك كانت هناك مناقشات عديدة منها حول طلبي في استعمال المرمر الأبيض الصافي، ومواصفات هذا النوع من المرمر تنطبق على المرمر المستعمل في التماثيل، فقد حاولت أن أعوض عن ذلك باستعمال الأسمنت الأبيض أو الحجر الخرساني، ولكن لم نوفق حتى بهذه المادة. لقد التزمت التصميم الداخلي دون تغيير، واتصفت التكسية بالبساطة اللائقة، مستعملا التكسية الحجرية، والتفاصيل الخشبية، كذلك أدخلت الحروفية في المشروع، بالمستوى المعنوي المطلوب.

حصل بعد ذلك أن أعطت دائرة الأوقاف رأيها، فقد طلب مسئوليها إزالة التزيينات، وما أشرت له من تفاصيل جمالية، مؤكدين ضرورة تبسيط الخطوط والزخرفة إلى حد قراءتها بسهولة، دون أن يدركوا الحروفية وسر

جماليتها، التي تكمن في عدم تبسيطها إلى مستوى قراءتها مثل إعلان تجـــاري، أو عنـــوان متجـــر مـــن المتـــاجر. كـــان اعتقادي أن مجاورة المسجد للبيئة الساحلية يحقق وجود مركز وســـطي لمدينـــة الكويـــت، يجتمـــع فيـــه قصـــر الإمـــارة والميدان والمسجد ومبنى وزارة الخارجية، ومبنى المؤتمرات الدولي، وإعطاء هـــذا المركـــز هويـــة معنويـــة خاصـــة يفضـــي إلى الخارج ببوابة شمالية وأخرى جنوبيـــة.

كانت فرصة للمشروع أن يكون هناك فضاء داخلي متناسب مع الهوية الكويتيـــة، وأن يحتـــل المســـجد مكانـــة لائقـــة. كذلك حاولت أن أشير إلى مستوى ارتفاع الأبنية التي ستنشأ حـــول المســـجد، منـــها بنايـــة البنـــك المركـــزي، وأن لا تستحوذ تلك الأبنية على مكانة المسجد بالارتفاع في السماء، ومن حسن الحـــظ، أن وافقـــني المصمـــم المســـؤول عـــن تصميم البنك المركزي، على تلك الفكـــرة.

وحصل عند زيارة أمير الكويت إلى المغرب أن يُعجب بتكسية المسجد الكبـــير هنـــاك، ونـــزولاً عنـــد هـــذا الإعجـــاب أرسل ملك المغرب فنانين مغاربة إلى الكويت للقيام بأعمال الزخرفة، من أجل تزيين داخـــل الجـــامع بزخرفـــة أندلســـية ومغربية. وضحته للمسؤولين أن تلك التزيينات تبدو غريبة علـــى الأجـــواء الكويتيـــة، وغـــير متناســـقة بـــين تفـــاصيل المسجد العمرانية والجماليـــة.

وبعد فشل الفنيين في إنقاذ الموقف لجئوا لي طالبين المساعدة بحل المشـــكلة. ومـــن التعقيـــدات أيضـــاً أن أحتـــج البعـــض على تجمع الطيور فوق المسجد، وما تسببه من أوساخ، أجبت على هذا الاحتجـــاج بضـــرورة تقـــديم الشـــكر للطيـــور التي اتخذت من المسجد مأوى لها، وما توفر له من غطاء طبيعي، يُذكر أن المكـــان ملجـــأً لأجمـــل الكائنـــات وأرقـــها، فهل هناك شهادة أوثق على قدسية المكان من لجوء الطير إليه؟ ما يجب أن يكـــون المســـجد الجـــامع إســـتجابة للوحـــي الإلهي، وما ورد في قرأنه، وما تترجمه الفنون في التعامل مع المواد الإنشائية، وما يعنيـــه ذلـــك في اللغـــة التشـــكيلية، مـــن الحروفية والنقش العربي الإســـلامي.

An Argumentation: The Relationship of the Mosque and the Identity of the Islamic City

Mohamed Makkiah
Makki Architecture
London, United Kingdom

Abstract: The Mosque in the Islamic sense is like the corner stone in the life of Muslims. In addition to being a worship place, it's a meeting and a rest place for the soul and the body.
The mosque retained its basic characters in all geographical settings and throughout history, regardless of the various materials and the diversity of design ideas. Horizontally, all the mosques are oriented towards the Ka'ba, and the minaret are landmarks, vertically. These values and characters are incorporated by the author in design of mosques he designed in different parts of the Islamic World. Elements from vernacular architecture and Islamic arts are conjoined together with advanced construction technology to produce mosques that are clearly integrated with local environments.